هرمنيوطيقا شلايرماخر بين الفهم النحوي والتأويل التقني
(قراءة في المفاهيم)

د. بوركبة بختة
المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي: تيسمسيلت

مقدمة:

تعتبر التأويلية واحدة من أهم المصطلحات والمفاهيم الجديدة التي تتشاكل مع جملة من الطروحات المختلفة والإشكالات الكبيرة المساهمة في تأسيسها والضامنة لحيويتها داخل الفكر المعاصر، حيث تستقيم عضويتها بفعل جمالية تلك التلوينات المشكلة لها، إذ يمكن تقديم أهم العناصر البارزة في قيامها وهي الآتي:

1)- إشكالية التقعيد للمصطلح:

إنَّ إشكالية المصطلح هي إشكالية التأويلية بالدرجة الأولى؛ لأنَّها تقوم على عملية الفهم والاستيعاب للمضامين والدلالات المختزنة في أفقها، وتترجم المعنى المراد ذكره.

تستجيب معمارية المفهوم إلى تنويعات داخل المصطلح ذاته، حيث يمارس على المفهوم تأصيلات وجودية تقبع في طرحه التنظيري، ويمس هذا الفعل الكينونة العربية، إذ يعتبر التقعيد للمصطلح من أهم الإشكالات التي عُنيت بها الدراسات المعاصرة.

وتزداد حاجة الباحث والدارس العربي إلى الأهمية المعرفية للمصطلحات الحديثة والمعاصرة، وما يلفت الانتباه في هذه الزاوية أنَّ الباحث العربي قد أخذ جميع هذه المعارف والمصطلحات والمفاهيم النقدية وكذا الابستيمولوجية جملة واحدة في وقت واحد تقريبا دون استيعابها، ودون الأخذ بالاعتبار لأصولها التأسيسية ومسار تطورها.

ولعل هذا التدافع الكبير لحوصلة الحركة الأدبية والنقدية الغربية المعاصرة هو الذي أوجد هذا التعالق، حيث نجد التشعب سمة بارزة تحضر مع أي مصطلح تبحث عن ماهيته وحدوده وآلياته النقدية أو الأدبية. فالمصطلح "كلمة أو مجموعة من الكلمات، تتجاوز آلاتها اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصورات فكرية، وتسميتها في إطار معين، وتقوى على التشخيص؛ وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معينة، والمصطلح بهذا المعنى هو الذي يستطيع الإمساك بالعناصر الموحدة للمفهوم، والتمكن من انتظامها في قالب لفظي يمتلك القوة التجميعية والتكشيفية لما قد يبدو مشتتا في التصور"[1].

إنَّ الخطوة الأساسية التي يقف عندها الدارس هي محاولة إيجاد ترجمة أو تعريب لتلك المصطلحات، فكثيرة هي المصطلحات الغربية التي حاورت البعد العربي في ثقافتنا، وأراد المنظرون الحداثيون إيجاد بديل لها في الاشتقاق اللغوي دون الاكتفاء بترجمتها من أجل الخصوصية العربية، فالاهتمام المفروض ليس في حل المشكلة اللفظية والمعجمية، وإنَّما في ماهية المصطلح داخل النسق المراد له.

مزجت الدراسات المعاصرة بين مصطلح التأويلية في منظورنا العربي والمصطلح الغربي الهرمنيوتيك أو الهرمنيوطيقا المعربة لـ Herméneutique ذات الأصل الغربي، حيث يفسر عبد السلام المسدي ملاءمة مصطلح [التأويلية] من خلال قوله: "الذي قعّد لهذا اللفظ العربي أن يقوم بديلا اصطلاحيا دقيقا أمران اثنان: أولهما: ملاءمته المطلقة لكي يكون خير كلمة نؤدي بها مادة لغوية أخرى في لغة أجنبية Interprétation، وهذه المادة تأتي ضمن الحقل الدلالي الواسع لسلسلة من المفاهيم كالشرح والتفسير؛ وثانيها أنَّ إتباعات هذا المصطلح من مخزوننا اللغوي عبر عملية الإيحاء التراثي تجعله موسوما بما كان يرافق اللفظة من إيحاءات معنوية، ولا سيما عندما شحنت الكلمة بشحنة التهجين"[2].

تخضع مقاربة المصطلح عند عبد السلام المسدي إلى محاولة عدم افتراض القطيعة والانفصال بين المنظومة المعرفية الغربية والسيّاق التراثي العربي، وهذا من أجل التأكيد على الإقصاء المفهومي لسلبية السلطة الثقافية والخضوع الأعمى لها، بل إقامة حوار واع يشهد التواصل بين الثقافات.

أما عبد المالك مرتاض فرأى أنَّ استخدام لفظة الهرمنيوطيقا كمقابل وجودي لـ Herméneutique يعد من المصطلحات الهجينة، مبرزا أنَّ ما يناسبه في التقعيد اللغوي هو لفظة التأويلية، حيث يقول: "إنَّ من النقاد العرب من ترجم هذا المصطلح إلى العربية في صورته الغربية بكل فجاجة، فأطلق عليه الهرمنيوطيقا، وهو من أقبح ما يمكن أن ينطقه الناطق في صورته العربية، ونحن لا نقبل بهذه الترجمة الهجينة الثقيلة ما دام العرب عرفوا هذا المفهوم وتعاملوا معه تحت مصطلح التأويل، فلم يبق لنا إذن إلا أن نستعمل التأويلية مقابلا للمصطلح الغربي القديم"[3].

إنَّ محاولة الترسيم الكامنة في إسقاطها على المرادف الأجنبي يحاكي التشبث بالهوية العربية، وبالاشتقاقات التأصيلية التي تفرض التعامل مع المفاهيم التي صيغت قبلا في تراثنا العربي، هذا التحيز للمصطلح يفسر محاولة فرز العناصر الابستيمولوجية الغربية ونحتها في وجودية الفكر العربي.

يطرح نصر حامد أبو زيد في كتابه (إشكاليات القراءة وآليات التأويل) الفكرة نفسها، حيث يعتقد يقينا أنَّها معادلة للفظة الغربية، وهذا ما يشير إليه قوله: "(...) الهرمنيوطيقا أو التأويلية إذا شئنا استخدام مصطلح عربي"[4].

يعكس هذا التبني قيمة البنية التقعيدية لها، حيث تفسر باعتبارها اسقاطا معياريا لوجودية الذاتية العربية.

يكاد يجمع الكثير من الباحثين العرب على استخدام الترجمة الحرفية المباشرة للفظة الهرمنيوطيقا، حيث يرى عبد الغني بارة أنَّ: "المقابل العربي (...) هو مصطلح (هرمينوطيقا) Hermeneutique حسب النطق الفرنسي، أو (هرمنيوطيقا) Hermeneutics حسب النطق الإنجليزي، وذلك لقربه من المفهوم الغربي وابتعاده عن الترجمات التي لا تفي المصطلح حقه دلاليا"[5].

ونجد محمد شوقي الزين في كتابه (تأويلات وتفكيكات) قد ترجم المصطلح الفرنسي بـ(فن التأويل) يقول: "إنَّنا نبتغي صيغة فن التأويل لترجمة كلمة Hermeneutique تمييزاً لها عن التأويل بمعنى Interpretation"(6).

إنَّ هذا التقارب المتشابك بين التأويلية والفن تفرضه بنية القراءة الجمالية للنصوص، حيث تستقيم تلك القراءة في تشكيلاتها الجمالية التي تصنعه، وبذلك فالعملية النقدية للنص تضع خطوتها الأولى بافتراض مكونات جمالية يحاكيها القارئ، لذلك تختزل أحادية المفهوم الناجم عن عنصر التأويل.

وبالرغم من هذه المواقف المدافعة والمهاجمة فيما يخص التقعيد اللفظي للمصطلح إلا أننا ارتأينا مزاوجة المصطلحين في هذا البحث، أي استخدام كلا من: الهرمنيوطيقا والتأويلية، وقد كان السبيل إلى معالجة القضية في منحاها التاريخي هو استخدام أصل الكلمة أي المصطلح الغربي، ومرد ذلك هو الرجوع الفكري والمفاهيمي للتنظير الغربي لذلك كان من الأجدر التعامل معه من هذا المنطلق.

2)- إشكالية المفهوم:

تتناول بنية المصطلح ارتباطات عضوية تمس بعض الدلالات والمفاهيم التي تشكله وتحاوره، حيث تستكين في مدلولها إلى إسقاط موضوعي له، فبين: علم الفهم، فن الفهم، علم التفسير، علم التأويل، فن التأويل، نظرية التفسير، التأويلية، التفسيرية كانت الهرمنيوطيقا تمارس وجودها داخل بنية الفكر؛ وإنَّ السبيل إلى فهم كينونتها يقود إلى التنقيب عن أصولهم.

إنَّ الملاحظ للمصطلحات السابقة يكتشف أنَّها تتمحور حول شقين من العناصر:

1- يتجلى الشق الأول في ورود بعض المصطلحات وهي: التفسير، الفهم، التأويل، ولعل وجودية هذه الكلمات لا تنفك أن تلتصق ببنية الهرمنيوطيقا، ذلك أنَّها ترعرعت في خضمها، فالارتباط الحيثي بها لم يكن اعتباطيا بل فرضته ميكانيزمات الدلالة التي تشتغل على أهمية المصطلح، ومحاورته للفعل الهرمنيوطيقي.

يذكر عبد الغني بارة أنَّ "هناك من المفاهيم التي تتداخل مع الهرمنيوطيقا ما يجعلها أحيانا تأخذ صورة المصطلح البديل أو الشارح أو المطابق/المماثل، وربما تبلغ مرحلة التكامل في بعض الأحيان، وهي في الحقيقة لا تعدو أن تكون مفاهيم فرعية أو مرحلية تنبثق من صميم المقاربة التأويلية مثل: التفسير، الفهم، الشرح، التأويل، الترجمة، التطبيق أو الممارسة"[7].

إنَّ تناول عنصر من العناصر السابقة لكي يكون المصطلح البديل له يؤكد الاشتغال على ذلك الجزء، وإعطائه أهمية كبرى في ظل التنظير والممارسة مما يجعله يستحوذ على قيمة كبرى.

تقوم دلالة الألفاظ الثلاث [التفسير، الفهم، التأويل] بتقديم إطار متكامل يبني المصطلح الأساس، حيث يعكس "الاتجاهات الثلاثة للفعل يؤول في اليونانية وهي:

1- يعبر بصوت عال في كلمات أي يقول أو يتلو.

2- يشرح كما في حالة شرح موقف من المواقف.

3- يترجم كما في حالة ترجمة لغة أجنبية"[8].

يستجيب تكوين الهرمنيوطيقيا منذ بدايته اليونانية إلى الالتفاف حول آليات يشتغل بها، وإجراءات واضحة تؤطر عملية فهم النصوص، حيث تكون هذه الألفاظ الأرضية الصلبة التي يتكئ عليها المؤول في قيامه بقراءة النص، إذ تشكل ما يسمى بالدائرة الهرمنيوطيقية.

تعتبر التأويلية من إفرازات الخطاب الفلسفي والإبستيمولوجي والديني، والمتصفح لأصولها يرى أنَّها ترجع إلى "الفعل اليوناني Hermeneuim ومنه الاسم Hermenei الذي يترجم عادة بالفعل يفسر Interprète أو التفسير Interprétation، ويبدو أنَّ البحث في أصل هاتين الكلمتين، والاتجاهات الأساسية الثلاثة في تفسير معناها كما جاءت في الاستخدام اليوناني لها يفيد كمقدمة لفهم الهيرمنيوطيقا بمعناه الحديث"[9].

تتأكد أهمية فاعلية التفسير من خلال وظيفته، حيث يقوم بربط مركزية المعنى الموجود في النص بالشواهد والقرائن الخارجية، وهذا التضمين الوظيفي يوصل إلى الإطلاع المعمق لما يحتويه النص، وبذلك فهو لا يكتفي باستخراج المعاني البسيطة، وإنَّما يزيد من موضوعيتها في الاشتغال على استخراج مبطنات التأويل لفهمه.

ولعل معمارية المصطلح لا تتشكل بدون وجود التأويل، ذلك أنَّه " قراءة لا تحط رحالها عند دلالة بليغة أو معنى يمكن القبض عليه، أو واقع يسهل وصفه والتماهي معه، التأويل هو في الحقيقة تأويلات بالجمع على التتابع (تأويل يؤول إلى تأويل) والتساوق (تأويل يضاهي تأويل) والتي تؤول إلى حالة عدمية بالمعنى الذي يستجلب فيه القبض على المعنى"[10].

يصبح التأويل نواة مركزية أو حلقة الربط بين بنية النص وطرح مجموعة من المعاني الممكن تحققها في فعل القراءة، إذ تستقيم وجوديته من اقتراحها كتجل واضح لقدرات المؤول على رسم معالم الدلالات.

رسمت الهرمنيوطيقا وجودها الفعلي من بنية التأويل، غير أنَّها ما انفكت عنه لتؤصِّلَ دلالة الفهم في العصر الحديث كنتيجة حتمية للتطور، ويبقى هو القاعدة التأسيسية التي لا يمكن الاستغناء عنها، ذلك أنَّ المصطلح "بقي محتفظا بإشارته الأولى بوصفه فن التأويل وعلمه"[11].

إنَّ معمارية الفهم وماهيته تتشكل في أنَّه صورة للتأويل، حيث يصبح "فعلا ينتج فهما في حال نجاحه، وإنتاج تأويله يعني الوصول إلى فهم المؤول"[12].

تصبح عملية الفهم هي المحطة الأخيرة التي يكتشف منها المؤول أنَّه استطاع أن يخرق ذلك النص بكل ما يحمله من ترميزات وغموض، ليقف عند الدلالات المتخفية من وراء الكلمات، لذلك نستطيع القول أنَّ التفسير والتأويل مادتان حيويتان نعبر من خلالهما إلى الفهم، لكننا سنتفق من البداية أنَّ قضية الهرمنيوطيقا هي قضية للفهم وإنتاجه.

أضحت عملية الفهم في الدراسات الحديثة والمعاصرة قائمة على إشكالية وجودية تنبع من أصل فلسفي، حيث تبنى هذا الأخير القضية، لنجدها تطرح تلك العملية "بوصفها ظاهرة ابستيمولوجية وأنطولوجية من خلال مجالين:

1- السؤال عما يعنيه فهم نص ما.

2- السؤال عن معنى الفهم ذاته من الناحية الوجودية"[13].

تصنع هاتان الظاهرتان تحولات نوعية في قيمة الفهم، لتكون أهمية القراءة في هذا الدرس ليست في الصورة المصغرة والمتمثلة داخل العملية التأويلية، وإنَّما في محاولتها الساعية والدؤوبة لصنع قالب معماري وجودي يقوم على دراسة الفكر الإنساني في حد ذاته، أي بمعنى آخر إنَّ الفاعلية تترجم في الانتقال المفروض من البحث عن منهج للفهم إلى البحث عن معنى الفهم في حد ذاته وحقيقته.

ومن هذا المنطلق فكل كلام عن المصطلح يفترض بالضرورة الكلام عن الفهم وخصوصية إنتاجه لدرجة أنه أصبح شغلها الشاغل وبعبارة أخرى "طموح الهرمنيوطيقا بأكمله ينزع إلى فهم الفهم"(14).

إنَّ فهم المؤول للخطاب النصي يعكس تأويلا؛ أي تصوُّراً قبلياً للمعاني وجملة الاقتراحات الممكن تحققها في شكل لغوي، ومن هذا المنطلق يكون إنتاجُ الخطاب خاضعاً لشروط توفر الفهم، لذلك "فكل خطاب دال، ويمكن القول إنَّ الخطاب الدال تأويل؛ وهو الذي يؤول الواقع، وذلك بما أنَّه يقول شيئا عن شيء، وإذا كان ثمة تأويل فذلك لأنَّ التعبير يعد استحواذا واقعيا بوساطة التعابير الدالة"(15).

إنَّ الخارطة التي يبني عليها المؤول فهمه للنص تؤصل لحقيقة مفادها أنَّ "التفكير في أي حدث كلامي سواء أكان منطوقا أم مسموعا إنَّما يستوجب حتما التفكير في انفتاحه؛ إذ لا بد لكي نصف مبدأ الانفتاح في أي حدث كلامي أن يتحقق ما يسمى بمفهوم الانسلاخ Le dépouillement أي انسلاخ الكلام وتغييره، إذ إنَّ التواجد ضمن انفتاح الكلام بمفهومه الشامل، يعد مهمة جد صعبة ومستعصية، وبخاصة إذا كنا بصدد الحديث عن نصوص منفتحة انفتاحا مطلقا عبر حركية زمكانية متغيرة ومتحددة فإنَّها تحتاج لا محالة في التعامل معها إلى خلفية معرفية"(16).

فهذا الانسلاخ عن المعنى الأصلي الذي يفترض وجوده داخل بنية النص، والتي ترتبط ارتباطا مباشرا مع كاتبه -باعتباره مؤسس لكل الخلفيات الثقافية والمعرفية داخله - يحقق مجالا ينفتح فيه على جملة من التأويلات.

يقوم الشق الثاني من الملاحظة على مصطلحين اثنين هما: اعتماده علم أم فن، حيث تعود هذه الفكرة إلى تحديد ضوابط هذا الفعل الهرمنيوطيقي.

لو عدنا إلى أصولها التاريخية نجدها تتضمن "كلمة Hermeneutiké بالإغريقية في اشتقاقها اللغوي على كلمة Tekhné التي تحيل إلى الفن، بمعنى الاستعمال التقني الآلي ووسائل لغوية ومنطقية وتصورية واستعارية ورمزية، وربما أنَّ الفن كآلية ينفك عن الغائية Téléologie، فإنَّ الهدف الذي لأجله تجند هذه الوسائل والتقنيات هو الكشف عن حقيقة ما "(17).

تستهوي إشكالية اللغة داخل الجسد النصي ممارسة الاغتراب عن المرجعية الأصلية والتراثية لها، وبذلك يستطيع القارئ أنَّ يقدم استراتيجيته التأويلية النابعة من الوعي الجمالي للوحدات الملفوظية.

تجوب بنية الفن حضورها في معمارية الفعل التأويلي من خلال اعتبارها تقيم جمالية، حيث تمارس هذه الأخيرة على مستويين: يتجلى المستوى الأول في قدرة المؤول وكيفية اشتغاله على النص، أما المستوى الثاني يحضر من واقع الوحدات اللغوية التي تفكك في النصوص للكشف عن معانيها.

ترجع الفكرة الثانية إلى اعتباره علماً؛ نتيجة لأنَّه يضمُّ مجالات فكرية وفلسفية ومعرفية وابستيمولوجية وأنطولوجية، وبالتالي فهو علم قائم بذاته يحتوي على مجموعة من المبادئ والقوانين التي تحكم عملية تأويل النصوص.

يحاكي هذا المصطلح عالما متكاملا من العناصر الحيوية التي تصنعه، حيث تستقيم بذلك ليونته وزئبقيته في التعامل مع شتى أصناف الفكر.

3)- إشكالية التصنيف:

إنَّ أهم إشكالية نقف عندها في ظل تحديد أوليات الهرمنيوطيقا هي تصنيف هذا المصطلح، حيث تخيم عليه بنية اللا تحديد، نظرا لأنَّه يعكس تلك الشمولية في تضمنه داخل مجالات متعددة، فهل ينساق في وجوده على أساس مفهوم أم منهج أم إجراء تطبيقي يمارس نفوذه على الدراسة النصية، أم أنَّه فعل معرفي إبستمولوجي فقط يختص بقضايا الوجود والكينونة أم نظرية معرفية لها طقوسها الفكرية؟

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال الجوهري تستدعي الغوص في الهرمنيوطيقا فكرا وفهما وتدقيقا بداية من تواجدها، ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ هذا المفهوم وجد أيضا صعوبة في تصنيفه عند العرب؛ وها هو سعيد يقطين يحاول تصنيفه باعتباره "نظرية تأويلية وممارسة، وليس هناك حدود تؤطر مجال هذا المصطلح سوى البحث عن المعنى والحاجة إلى توضيحه وتفسيره، كما أنَّها ليست منهجا تأويليا له صفاته وقواعده الخاصة أو نظرية منظمة"(18).

ينطلق سعيد يقطين في تصوره من أن الممارسة التأويلية داخل عالم النصوص السردية، وبذلك فكرة النظرية المنظمة أو المنهج، ليتكئ على الإجراءات التي تمارس، لتكون الأهمية التي ترجى هي إيجاد معنى.

غير أن مؤلفَي دليل الناقد الأدبي يريان أنَّه: "لا تقتصر ممارسة الهرمنيوطيقا على التأويل الأدبي، ولا توجد مدرسة هيرمنيوطيقية معينة، ولا يوجد من يمكن أن يطلق عليه صفة الهيرمنيوطيقية، ولا هي كذلك منهج تأويلي له صفاته وقواعده الخاصة أو نظرية منظمة"[19].

تخرج فكرة الهرمنيوطيقا عن نطاق النصوص الأدبية لتشمل كل ما يقع في بنية الوحدات اللغوية، بما في ذلك تعرضها للنصوص المقدسة، فبهذا المعنى يؤسسان لفكرة عدم الخضوع إلى مدرسة تأويلية معينة تحاكي قواعد مضبوطة لقراءة النص.

نجد أيضا تفسير نبيهة قارة حدود استخدام الفعل التأويلي في كتابها (الفلسفة والتأويل) تقول: "

1- هي تحدد أحيانا منهجا معينا، أو بالأحرى صنفا من المناهج يستمد نموذجه من المسار المميز لتفسير النصوص الدينية، وهذا المنهج يبدو مناسبا حين يكون الموضوع متمثلا في إبراز معنى مفترض ولكنه غير معطى على نحو مباشر.

2- يمكن استعمالها كذلك لدلالة على نمط من التفكير والنظر العقلي المتعلق بالمناهج التأويلية والذي يهدف إلى تأسيسها وتبريرها.

3- وأخيرا تمثل لفظة هرمنيوطيقا نوعا معينا من الفلسفة حيث تجد المهمة السابقة ما يبررها انطلاقا من نظرة خاصة للوجود أو للشعور أو للعقل"[20].

تحاول نبيهة قارة أن تضع خارطة لجملة المفاهيم التي تؤسسها التأويلية، والملاحظ للأفكار الثلاث السابقة يكتشف أنَّها صنفتها بحسب التطور التاريخي للمصطلح، حيث تعود الفكرة الأولى إلى قيامها في تفسير النصوص المقدسة، وهذا ما سنراه مع بدايتها التأصيلية، أما الفكرة الثانية تتعلق ببداية التحول الفكري لها ليشمل جوانب معرفية ابستيمولوجية، في حين أنَّ الفكرة الأخيرة تستقيم بارتباطها داخل الفعل الفلسفي الذي أسهم في تطورها.

ولعل هذا التمايز في التصنيف نابع من دائرة التطور الحاصلة في المصطلح ذاته، فكل مرة نجد الهرمنيوطيقا يؤسس لها من زوايا مختلفة، لكن ما نتفق عليه أنَّ فهم التأويلية غالبا ما تداخلت دونما قيد أو شرط مع فكرة الإجراء التأويلي، غير أنَّها تنفرد من حلقة التأويل البسيط والعادي في كونها تسعى إلى تأسيس نظرية؛ ومن ثمة كانت فكرة التأويلية بوصفها نظرية للتأويل (...) تميل أصلا إلى الانشغال بالتوجيه السليم للإجراء، وهو يلتزم في كل الحالات بشروطها وحدودها ومداها"[21].

فالكل يتفق على أنَّ الهرمنيوطيقا تطبيق وممارسة داخل النصوص، بالرغم من الاختلافات في آلية تصنيفها داخل المنظومة الفكرية، والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو في كيفية نشأة هذا المصطلح في خضم السيرورة التاريخية؟

1)- مفهوم الهرمنيوطيقا:

مزجت الدراسات المعاصرة بين مصطلح التأويلية في منظورنا العربي والمصطلح الغربي الهرمنيوتيك أو الهرمنيوطيقا المعربة لـ Herméneutique ذات الأصل الغربي، حيث يفسر عبد السلام المسدي ملائمة مصطلح [التأويلية] من خلال قوله: "فالذي قعّد لهذا اللفظ العربي أن يقوم بديلا اصطلاحيا دقيقا أمران اثنان أولهما ملاءمته المطلقة لكي يكون خير كلمة نؤدي بها مادة لغوية أخرى في لغة أجنبية Interprétation، وهذه المادة تأتي ضمن الحقل الدلالي الواسع لسلسلة من المفاهيم كالشرح والتفسير؛ وثانيهما أنَّ إتباعات هذا المصطلح من مخزوننا اللغوي عبر عملية الإيحاء التراثي تجعله موسوما بما كان يرافق اللفظة من إيحاءات معنوية، ولا سيما عندما شحنت الكلمة بشحنة التهجين"[22].

تخضع مقاربة المصطلح عند عبد السلام المسدي إلى محاولة عدم افتراض القطيعة والانفصال بين المنظومة المعرفية الغربية والسيّاق التراثي العربي، وهذا من أجل التأكيد على الإقصاء المفهومي لسلبية السلطة الثقافية والخضوع الأعمى لها، بل إقامة حوار واع يشهد التواصل بين الثقافات.

وقد ذهب عبد المالك مرتاض جانبا في هذه القضية حيث رأى أنَّ استخدام لفظة الهرمنيوطيقا كمقابل وجودي لـ Herméneutique يعد من المصطلحات الهجينة، مبرزا أنَّ ما يناسبه في التقعيد اللغوي هولفظة التأويلية، حيث يقول:" إنَّ من النقاد العرب من ترجم هذا المصطلح إلى العربية في صورته الغربية بكل فجاجة، فأطلق عليه الهرمنيوطيقا، وهو من أقبح ما يمكن أن ينطقه الناطق في صورته العربية، ونحن لا نقبل بهذه الترجمة الهجينة الثقيلة ما دام العرب عرفوا هذا المفهوم وتعاملوا معه تحت مصطلح التأويل، فلم يبق لنا إذن إلا أن نستعمل التأويلية مقابلا للمصطلح الغربي القديم"[23].

مرت الهرمنيوطيقا بمراحل مختلفة تناسلت فيها مبادئ الاختلاف والتعددية حول المصطلح والمفهوم والمعالم، حيث يحدد (عادل مصطفى) مراحل تطورها عبر العناصر التالية:

"- نظرية تفسير الكتاب المقدس.

- ميتودولوجيا فقه اللغة العام.

- علم كل فهم لغوي.

- الأساس المنهجي للعلوم الإنسانية (الروحية)

- فينومينولوجيا الوجود والفهم الوجودي "[24].

ولعل هذه العناصر والمراحل تمثل مدارس تأويلية شدّت انتباه السّاحة النّقدية والفكرية الحديثة، وكان الفعل الأركيولوجي للتنقيب عن تلك المدارس يمارس سلطته من ازدواجية فعّلية تقوم بين تفجير علاقات منسية في العصور السابقة تدخُل في بنية الحدث التأويلي والقيمة الماهوية للدرس الابستيمولوجي، والخطاب الفكري اللذان صهرا تشكل هذه المدارس.

إنَّ قوام هذا الفعل الخطابي داخل حقل تمثلات تلك المدارس، يكشف وبموضوعية اقترابها وتعاضدها مع جميع الميادين الفكرية والفلسفية، حيث غدت هذه المفاهيم الجديدة تحط رحالها مع كل ممارسة اغتراب للوعي التاريخي للحقائق، وجدل النزوع إلى تحيزات دون أخرى، ففي خضم كل هذه المتغيرات كانت المدارس الهرمنيوطيقية تمارس المعقول والبحث عن الالتزام في أطيافها.

2- الهرمنيوطيقا الموضوعية : Hermeneutique objective

يمكن اعتبار الهرمنيوطيقا الموضوعية مدرسة تأسيسية ذات أهمية كبرى مارست حركية التطور التي شهدتها التأويلية الحديثة، حيث تؤرخ لوجودها التكويني والتطوري المعرفي انطلاقا منها، وقد وجدت مع (ديلتي) و(شلايرماخر)، هذان الشخصان اللذان حاولا البحث داخل حلقة دائرية تسمى بالفهم، وبالتالي تعلن الهرمنيوطيقا - من هذه المحطة - انسحابها وانفصالها من الاستقراء والاستقصاء داخل كُنّه العلوم الدينية الخاصة، لتضع رهانها الوجودي داخل فعل الفهم.

إنَّ الحديث عن هاتان الشخصيتان اللتان ساهمتا في تحديد أولويات البحث التأويلي يجعل الباحث يقرّ بأهمية الأدوار التي صنعها مجهودهما في توجيه الدرّس من إشكالات الحقائق والإيمان داخل النصوص الدينية، إلى توسيع مفاهيم المصطلح وقلّب مجالات البحث داخل فعل الفهم، باعتباره البنية الأساسية التي تصنع للتأويلية عالمها الخاص بها، وهذا التوّجه ساهم في تسريع دولاب التطور المعرفي للمصطلح.

3- هرمنيوطيقا شلاياماخر:

ساهم (فريديريك شلايرماخر Friedrich Schleiermacher) (1768- 1834) داخل حيثيات تأسيسه للهرمنيوطيقا بتهيئة أرضية أخرى تنثر فيها التأويلية بذورها الأوليّة، حيث كان عتبة انتقال من التأويل اللاهوتي إلى التأويل الفلسفي، ومن خلال هذا الانتقال "عمل على توسيع دلالة هذا المصطلح فيما وراء نطاق اللاهوت أوالمشكلات الجزئية في تفسير النصوص الدينية، بحيث أصبح المصطلح يمتد ليشمل علوم التفسير كالفيلولوجيا والقانون والتاريخ إلى جانب تفسير النصوص الدينية"[25].

تأثر هذا الفيلسوف تأثراً واضحاً بالاستقراءات الكانطية التي كان محورها العقل، حيث أراد أن يؤسس نظريته التأويلية وفق منظور عقلي منطقي يحاول تفسير أهم العناصر الجزئية التي تتحدد بعملية الفهم، فسعى إلى تحديد كل المتعلقات بها: من إدراك للفهم في حد ذاته وشروطه وآلياته وأساسياته وقواعده.

ولعل هذا الاتكاء على المبدأ العقلي جعله يقيم حواراً موضوعياً بين أربعة عناصر تشكل البنية الداخلية للفهم، وتتجلى فيها كل المهام الكبرى في تفعيل حركيتها، حيث يمكن الاستقصاء عنها في شروط تنظيره وهي: الفهم (في حد ذاته)، اللغة، الخطاب، الذات المتكلمة، إذ يلخص هذه العناصر في تعريفه الوجيز للهرمنيوطيقا بأنّها " فعل للفهم، وكل ما فُهم خطابي، ومفهومها يرتكز من مدلول الفهم ونظرية اللغة"[26].

إنَّ هذا التعريف الموجز في عباراته يؤسس لمحطات الفهم باعتبارها نشاطٌ مكثفٌ يحوي برنامجاً استقرائياً يحاور كيفية الفهم، فالهرمنيوطيقا أولاً وقبل كل شيء فن للفهم، وبهذا فهو يكافئ المصطلحين أي الهرمنيوطيقا هي الفهم.

أضحى الفهم تقنية تهتم بالبنية التركيبية الداخلية للنص، وكيفية تشكيل المعنى واكتساب المعرفة، وبالتالي يستمد (الفهم) وجوده من اللغة كأساس تحققه واستيعابه، والتوصل إلى نتائج تلك العملية تتحقق من زاويتين اثنتين: أولهما يصبح البحث عن المعنى هو الهدف الأسمى، والتوصل إليها يعني استجلاء خطاب معين يدور في أفلاك اللغة ويحقق وجودها، وثانيهما هو البحث عن الفاعل أي الذاتية الإنسانية القائمة باكتشاف الفهم وتأسيس الخطاب وممارسة اللغة.

يحاول (شلايرماخر) إعلاء الدرّس اللغوي ووضعه في مكانة متميزة داخل أيّ عملية هرمنيوطيقية لأنَّه الوحدة الجوهرية التي من خلاله تتأسس أفعال الفهم، حيث يستقطب في معماريته جميع التشكيلات المختلفة، فتصنيفات النصوص على أساس أنَّها دينية، أدبية، قانونية وغير ذلك لا تؤثر في هذا الحقل، لذلك فإنَّ "جميع هذه النصوص تمثل في جسد لغوي، ومن ثم فلا بدّ من استخدام النحو لكشف معنى العبارة، فالفكرة العامة تتفاعل مع البنية اللغوية لتُكوّن المعنى، فإذا أمكن صياغة مبادئ كل فهم لغوي، فإنَّ هذه المبادئ تشكل هرمنيوطيقا عامة، ويمكن لهذه الهرمنيوطيقا العامة أن تكون الأساس والجوهر لكل هرمنيوطيقا خاصة"[27].

تتحدد القيمة اللغوية التي أضافها (شلايرماخر) بعد ذلك، في أنَّه لم يحصر الفعل الوجودي للفهم داخل النصوص المجسدة مادياً عن طريق الكتابة، وإنَّما وسع مجالها لتشمل أيضا الحوارات المباشرة والآنية، حيث تستقي أهميتها في أنَّها تشكل أيضا مادة للتأويل، ولعل هذه الرؤية توضحت أكثر عندما حاول البحث "في الكيفية التي تتم فيها آلية الفهم أية عبارة تلقى على مسامع المستمع، ويستدرك لفظة أخرى تفسر فن الفهم وهي (فن الإصغاء)"[28]، لأنَّ الفهم أولاً وقبل كل شيء هو إصغاء لكلمات ومفردات متراصة تحتوي معنى محدد، وهذه العملية تتطلب الوضوح حتى تكون بدون ملابسات لأنَّ أي خلل في إيصال اللغة يؤدي بالضرورة إلى سوء الفهم.

إنَّ سوء الفهم هو المشكلة الأساسية التي ينبغي تجنبها في ثنايا تفسيرنا للنصوص، لأننا سنسقط في إكراهات التأويلات الافتراضية دون تحقيق مصداقية لعملية الفهم، وتصبح معضلة تفسير النص أهم من التأويل لذلك ينبغي احتواء الممارسة التأويلية عن طريق ترسيخ برنامج إجرائي عام يحصر القضية.

ومنه فقد أصبحت الإجراءات الهرمنيوطيقية تمس نوعين من أنواع التأويل التي ينبغي التطرق إليهما داخل الممارسة التأويلية لمختلف النصوص، وكان وجوباً البحث عنهما وهما كالآتي:

أ- الفهم النحوي:

الفهم النحوي ويسمى أيضا بالتأويل النحوي، ويدّرس هذا الصنف من التأويل: اللغة وقواعدها وأساسياتها داخل صياغاتها الاجتماعية، " فكل خطاب يستند على لغة موجودة في النص، وكل مؤول يتعامل مع هذه اللغة، وهنا نستطيع أن نُظهر الخطاب في مظهرٍ واحدٍ ومن ثم نستنبط المعنى، هذه الصيغة للتأويل تَمُدُّنا بنوعية الموضوع وأيضا سوء الفهم لأنَّها تضع حدوداً، تكتب إطارات لغوية داخل كل ما يجري في المعنى، هي تقصي كل ما هو ليس داخل نظام اللغة"[29].

تتحدد الفعَّالية الموضوعية في هذا النوع من التأويل بأنَّه يضبط عملية الفهم انطلاقاً من القواعد الملتزم بها في النص، أي تقديم دلالة مستخرجة من انسلاخ لغوي يؤول استخلاصها من البنيات اللغوية الأساسية الموجودة في النص، ووفق ما ترتضيه تلك البنيات، وبذلك نتجنب سوء الفهم الذي يقع في شركه من لا يستوعب أهمية اللغة داخل عملية الفهم.

إنَّ الهدف من وضع التأويل النحوي داخل البرنامج الإجرائي لعملية التأويل، هو التأكيد على الموضوعية التي تضعنا فيها دراستنا للغة في إطار البنيات الداخلية التركيبية والاستعمال الكلي اللساني عند المجتمع، " فالأساسي في وحدة المعنى هو قانون التأويل النحوي، وهو في نفس الوقت أساس لدقة المعنى، لكن لا ينتج سوى وحدة أصلية للمدلول[30].

تُصنع الدلالة الأصلية من رحم الإدراك النصي للمعنى الموجود، الذي يؤسس له باعتباره المعنى الأول، حيث يعلن هذا الطرح الهرمنيوطيقي عن اكتشاف دلالة أحادية تستقيم داخل عضوية البنية الداخلية للنص.

غير أنَّ (شلايرماخر) يستدرك تحقق دلالات أخرى يمكن استجلابها عن طريق وجود تأويل آخر يفترض مجموعة من العناصر المهمة وذات أولوية أساسية تنطلق منها عملية الفهم وهو النوع الثاني من التأويل (التأويل التقني) ليحقق الخطاب خصوصيته مابين واقع اللغة والجانب النفسي.

ب - التأويل التقني:

التأويل التقني أو الفني هو الفهم الفني أو النفسي لذهنية المؤلف الخاصة أو لنبوغه الخلاق، وبمعنى آخر هو" موضوع المُبدِع، واللغة هنا مُهملة، لذلك يجب الانطلاق من نفسيّة المبدع وشخصيته من أجل فهم المعنى، واللغة ليست سوى عنصر موضوع من أجل فهم نفسيته، فالدلالة ليس سوى فعل للتفكير نسجه المؤلف في النص"[31].

يحاول هذا التنظير إبراز الأهمية الفعلية لتحقق المعنى انطلاقاً من الوجهة الأصلية أي موجِد النص والباعث فيه الكثير من عندياته، لذلك يتوجب على المؤول وضع حجر الأساس من هذه النقطة، وبالتالي يصبح النص وسيط لغوي ينقل أفكاره ومدلولاته من الكاتب إلى مؤوله ومتلقيه.

ولعل هذه الامتيازات التي حُظي بها المؤلف تقوم مقام وضع سلطة تهيمن على المعنى المراد، ولذلك فإنَّ الحديث عن فهم قصدية الكاتب يكون تبعاً لفهم النص وأفكاره، ومنه إقامة حوارٍ واعٍ لذاتية القابعة داخله، ففكرة الوسيط بين هاتان الشخصيتان تعكس روح الحوارية التي شكلت محطة الفهم الباطني، "إنَّها العملية التأويلية المعقدة التي تتدخل فيها حركيّة اللغة بكل مستوياتها، وتتدخل فيها أيضا العلاقة بين ذاتية (الباث /المرسل) و(المؤول/ المتلقي) ،ثم يتدخل فيها في الوقت نفسه موضوع البحث أو الحديث، وفي ثنايا هذه وتلك نجد مسار حركيّة المعرفة تلعب دوراً أساسياً وفعّالاً"[32].

لذلك تصبح عملية الفهم بين جدلية قائمة تتحدد من خلال تغلب عنصر عن الآخر، حيث يمثل التأويل النحوي الجانب الموضوعي الذي يحقق مصداقية التأويل، ويكون الآخر أي التقني هو الجانب الذاتي الممثل لهوّية صاحبه، وبين الذاتية والموضوعية يستقي الخطاب والفهم وجودهما وكينونتهما.

تصبح هذه المعمارية التأويلية التي خطط لها (شلايرماخر) تمارس هيكلة لنموذج إجرائي يتحقق بين الواقع اللغوي والذاتية السيكولوجية، "إلا أنَّ الخطاب الذي يُمثِل موقع التقاء اللغة بالنشاط اللغوي للفرد يتضمن الصعوبة الأساسية لكل الهرمنيوطيقا؛ يجب أن نفهم سلفاً اللغة ككُّل يمثل الخطاب، مجرد لحظة من لحظاته، كما يجب أن نفهم مسبقاً مجموع الحياة الفردية الذي يعبر عنها الخطاب بطريقته الخاصة، إلا أنَّه لا يتسنى فهم هذين المجموعين بدون الانطلاق من أجزائهما"[33].

يجب علينا أن نعلم أنَّ نفسية المؤلف تستحق الدراسة وتعتبر من المسكوت عنها، وما هو مصرح به: واقع الكلام، ووجود الأول يقينا في الإطار النصي لأنَّه باعث المعنى الأصلي، بمعنى آخر التفرغ الكامل للدّرس القصدي انطلاقا من البنية اللغوية، وبهذا النمط تتغير القاعدة الأساسية التي تهتم الهرمنيوطيقا بها، حيث تتركز من " سوء الفهم لا الفهم، فعلى عكس الرأي الذي هيمن إلى زمن (شلايرماخر) أنَّ الفهم ينشأ من تلقاء ذاته في غالبية الأحيان، وأنَّ المفسر الجيّد هو من تدرب على معالجة الحالات القليلة نسبياً من عدم الفهم والمنبعثة من غموض المعنى أو ازدواجه"[34].

يبقى سوء الفهم يُطاردنا ويتربص بنا في أي جزئية من جزئيات الدراسة التأويلية، وحتى بالرغم من فهمنا الجيد للنص فهو يتحدّانا، ولعل الإشكالية الجوهرية التي تؤدي إلى ذلك السوء هي تاريخية النصوص، بمعنى آخر كلّما تقدم النص في الزمن صار غامضاً، وكان أقرب من سوء الفهم إلى الفهم، لأننا سنبتعد كثيراً عن المقاصد التي وضعها صاحب النص، ويصبح الزمن يؤسس لتلك الغربة بين المؤول وتقفي دلالات الكاتب.

يصنع الابتعاد عن سوء الفهم نفسه انطلاقا من محاورة ثلاث عناصر مهمة وهي: الكلام، المعنى، روح العصر (Zeitgeist)، إذ تستقطب هذه العناصر السابقة المنحى الفيلولوجي الذي تربعت على يديه هرمنيوطيقا (شلايرماخر)، من أجل اكتشاف الفهم الباطني الذي لا يكاد ينزاح عن بنية " فقه اللغة، ذو ملامح روحية صافية تنبع من عمق الظاهرة، إنَّها اللغة الباطنية التي لها من المؤهلات ما يجعلها دائما تستطيع أن تسير مع الظواهر اللغوية على اختلاف سيّاقاتها"[35].

وفي ضوء مكاشفة القيَم الفيلولوجية التي تبتدع في زواياها أهمية الذات العارفة لقيمة التركيب اللغوي، وتطور الوعي بطريقة موازية للتطور الذي يطرأ على اللغة تحت ضغط وتأثير روح العصر، أصبحت تُكوّن استراتيجية الفعل التأويلي التي تقدم نفسها كحقائق تجوب الوضعية الخطابية وليس بناء مفهومي مجرد.

الخاتمة:

نستنتج من خلال الأفكار السابقة أن شلايرماخر قد دعا إلى مفهوم التجربة عالمية للهرمنيوطيقا، حيث أنَّ طُموح هذا المنظّر كان ينزع إلى تأسيس نظرية عامة للفهم تتاهى معها كل الحواجز والمعيقات التي تجعل الاختلاف بين النصوص قائماً، ولعل هذا التحديد العام تضبطه البنية اللغوية التي تصنعه وقواعدها النحوية الصارمة والتأويل التقني الذي يضمن محددات الفهم التأويلي، ومن هنا فإنَّ هذا الطرح كان يسعى إلى محاولة إقامة إجراء تأويلي صالح لكل النصوص، وإطار عام يرتضيه أي مؤول، وتبقى الخصوصية كتفاصيل جزئية ترسم ملامحها بنية الخطاب.

الهوامش

1)- بوحسن أحمد، مدخل إلى علم المصطلح (المصطلح و نقد النقد العربي الحديث)، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 60 - 61، كانون الثاني شباط، بيروت، 1989. ص 84.

2)- عبد السلام المسدي، المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، (د. ط)، 1994. ص64.

3)- عبد الملك مرتاض، التأويلية بين المقدس والمدنس، مجلة عالم الفكر، المجلد 29، العدد الأول، 2000. ص263.

4)- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الرابعة، 1996. ص 16.

5)- عبد الغني بارة، الهرمنيوطيقا والفلسفة (نحو مشروع عقلي تأويلي)، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، 2008. ص 89.

6)- محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات (فصول في الفكر الغربي المعاصر)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، (د. ط)، (د. ت). ص 29.

7)- عبد الغني بارة، (م. س)، ص 157.

8)- عادل مصطفى، فهم الفهم (مدخل إلى الهرمنيوطيقا)، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2007. ص 34.

9)- صفاء عبد السلام علي جعفر، هيرمنيوطيقا التفسير (الأصل في العمل الفني)، دار المعارف للنشر والتوزيع، مصر، 2000. ص 23.

10)- محمد شوقي الزين، (م. س)، ص 19.

11)- عادل مصطفى، (م. س)، ص 69.

12)- ج هيو سلفرمان، (م. س)، ص 31.

13)- صفاء عبد السلام علي جعفر، هرمنيوطيقا التفسير، (م. س)، ص 24.

14)- نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى. 1998. ص11.

15)- بول ريكور، صراع التأويلات (دراسة هرمنيوطيقية)، تر: منذر العياشي وجورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2005. ص 34.

16)- مختار لزعر، التأويلية من الرواية إلى الدراية (مبادئ لتأصيل البحث التأويلي العربي)، (...) ص ص 14، 15

17)- محمد شوقي الزين، (م. س)، ص 13.

18)- سعيد يقطين وفيصل دراج، آفاق النقد العربي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2003. ص330.

19)- ميجان الرويلي وسعد البازعي، (م. س)، ص47.

20)- نبيهة قارة، (م. س)، ص 05.

21)- مختار لزعر، (م. س)، ص 16.

22)- عبد السلام المسدي، المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، دط، 1994، ص 64.

23)- عبد الملك مرتاض، التأويلية بين المقدس والمدنس، مجلة عالم الفكر، المجلد 29، العدد الأول،2000، ص 263.

24)- عادل مصطفى، فهم الفهم [مدخل الى الهرمنيوطيقا]، ص 66

25)- سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، ص87

26)- Friedrich D ,E Schleiermacher ; Herméneutique (traction et introduction de marianna simon) ,édition labor et fides , 1987 Genève p 31

27)- عادل مصطفى، فهم الفهم [مدخل الى الهرمنيوطيقا] نظرية التأويل من أفلاطون الى غادامير، ص98

28)- عادل مصطفى، فهم الفهم [مدخل الى الهرمنيوطيقا] نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، ص98

29)- Friedrich D Shleiermacher, Herméneutique, p 23

30)- Ibid , p59

31)- Friedrich D Schleiermacher, Herméneutique, p 23

32)- مختار لزعر، التأويلية من الرواية إلى الدراية [مبادئ لتأصيل البحث التأويلي العربي]، ص 45

33)- نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل، ص47

34)- أسعد قطان، الهرمنيوطيقا الحديثة وفهم النص، في التأويل والهرمنيوطيقا، ص 51.

35) - مختار لزعر، التأويلية من الرواية إلى الدراية (مبادئ لتأصيل البحث التأويلي العربي)، ص 42.